هل تجدى مطالعة التاريخ ؟

من خصائص العصر الحاضر البارزة شدة الإقبال على التاريخ والإمعان فى تقليب صفحاته وتفلية أخباره ، ومن الملحوظ أن أكثر المؤلفات رواجاً وأوسعها انتشاراً هى التى تتناول بحوث التاريخ ، وتحاول أن تجلو ناحية من نواحيه المجهولة أو التى تعرض لعصر معهود وتبرزه فى جلة قشيبة وصورة أخاذة ، أو تستحضر من نواحى الماضى القريب أو البعيد شخصية ممتازة أو بطلاً معروفاً وتروى قصة حياته وتكشف عن خوالج نفسه ومطارح أفكاره وبواعث أعماله ، وقد اجتذبت هذه النزعة السائدة إلى صفوف المؤرخين وكتاب السير والتراجم طائفة كبيرة من أقطاب المفكرين ، فانتظموا فى سلكهم وخصوا التاريخ بعنايتهم وأرصدوا له مواهبهم ، وقد جرف تيار هذه النزعة مفكراً من الطراز الأول مثل برتراندرسل فوضع كتابه عن الحرية والتنظيم ، وفيلسوفاً فى طليعة الفلاسفة مثل كروتشه فألف كتابه عن تاريخ أوربا فى القرن التاسع عشر ، بل يذهب كروتشه فى إكبار التاريخ إلى أبعد من ذلك ، فالتفكير التاريخى عنده قريع التفكير الفلسفى ، والتاريخ فى رأيه ضرب من الفلسفة ، والفلسفة لون من التاريخ .

وليست النزعة العلمية هى أوضح صفات العصر وأظهر خصائصه كما يقع فى وهم الناظر فى شئونه أول وهلة ، إنما ميزته الواضحة هذا التلفت الدائم إلى الماضى ومحاولة الوقوف على أصول كل فكرة من الأفكار ومعرفة مناشئ كل مذهب من المذاهب ، ولعل السبب فى ذلك أن الدعايات السياسية والنزعات

المذهبية قد اشتد بينها الصراع فى العصر الحاضر ، ومن دأب كل نظام جديد أو انقلاب طارئ أن يتجه إلى الماضى ليستظهر به ويلتمس عنده المسوغات ويتسقط المعاذير ، وكل تجربة سياسية تحاول أن تستدل من الماضى وتجاربه على صحتها وأصالتها وقربها من طبيعة الحياة وتمشيها مع منطق الحوادث . والحقيقة أن تفكيرنا فى الماضى أو نظرنا إلى المستقبل رهن بمشكلاتنا الحاضرة ، فنحن نتجه إلى الماضى لنستمد العون على الحاضر ولتبرير أعمالنا وتزكيه خطتنا ، وقد نتجه إلى الماضى أو المستقبل لنستعيض بهما عن الحاضر أو لنبين كيف يجب أن يكون الحاضر . وكل عصر من العصور من شأنه أن يعيد خلق الماضى ويصوره تصويراً جديداً يلائم نزعاته ويساوق أهواءه . فالماضى فى نظرنا غيره فى نظر أسلافنا ، وقد قال فى ذلك كروتشه كلمته المأثورة وهى : «إن كل تاريخ إنما هو تاريخ معاصر» .

والشيوعيون الآن يحاولون أن يفسروا التاريخ تفسيراً اقتصادياً مادياً قائماً على توزيع الإنتاج وأثره فى إيجاد مختلف الطبقات ، والفاشيون كذلك يحاولون أن يفسروا التاريخ تفسيراً قائماً على تحبيذ فكرة الدولة وتجريد الفرد من قيمته والأمم الديمقراطية تعمد إلى تفسير التاريخ تفسيراً يوضح أثر روح الجماعات فى خلق التاريخ وتسلسل أدواره .

وقد انداحت دائرة التاريخ فى العصور الحديثة وترامت حدوده . فمنذ مائة سنة كان التاريخ يبدأ على وجه التقريب بسنة سبعمائة قبل الميلاد وكان ما قبل ذلك أساطير مفقة وخرافات متناثرة لا تمكن المؤرخ من أن يحوك أفواف التاريخ وينتهى إلى حقيقته ، وقد أخذت تتسع تخوم التاريخ بعد توفيق شامبليون فى حل الهيروغليف المصرى ، وبعد وقوف رولنسون على طريقة قراءة الخط المسمارى .

وهناك فريق من المفكرين لا تروقهم هذه النزعة التاريخية ولا يرحبون بهذا الاتجاه إلى الماضى ، وهم يرون أن أكثر ما نسميه تاريخاً هو طائفة من توافه الأخبار وفارغ الحوادث لا تستحق أن نوليها عنايتنا ونشغل بها أفكارنا ، وهم يرون أن سبب الإقبال على التاريخ والحرص على دراسته رغبة ملحة فى الإنسان تصرفه عن البحث الصارم المنتج وتدفعه إلى كل شىء عاطل من الأهمية مجرد من الجدية ، والتاريخ إن هو إلا ملهاة وقتل للوقت وإن كان لا يخلو من جاذبية وطرافة ، وما الذى يغرينا بالتاريخ وحولنا الحاضر بحوادثه الحافلة وحروبه الطاحنة وانقلاباته الهادمة ، وفيه كل ما يذهل العقل ويتطلع إليه القلب من روائع المخاطرات ورهيب الحوادث ؟ وهل نرى فى التاريخ غير صور منعكسة من هذا الحاضر المجهود القلق ؟ فلماذا لا نعرض عن التاريخ ونتوفر للبحث عن حق مستقر نلوذ به خلال هذه الفوضى الضاربة والاضطراب المستحكم ؟

وما فائدة التاريخ ؟ وما جدوى غربلة هذه الأخبار الكثيرة المتراكمة المختلط فيها الحق بالباطل والتى قد تنفد جهودنا وتنقضى أعمارنا قبل أن نميز ما بها من غث وسمين وصادق وزائف ؟ وهل معرفة بواطن الرجال الذين لعبوا دوراً هامًّا فى الماضى وإدراك طبيعة الحوادث السالفة وأسرار الانقلابات التاريخية ينفعنا فى هذه الأيام ؟ بعض الناس لا يرى فائدة فى ذلك ، وفريق منهم يرى أن عصرنا هو أكمل العصور وأوفرها خبرة وأوسعها علماً وأنه مشرف على القمة وإليه تناهى كل مجد ، فبين أيدينا عصارة حكمة العصور الخالية وخلاصة علوم الأجيال السابقة فالرجوع إلى الماضى الدائر وتأمل صور مجتمعات قد عفاها البلى وطواها الدهر ، واستحضار شخصيات قد رزحت تحت أطباق الثرى لأنها اشتهرت فى الماضى السحيق بسبب انتشار الجهالة واستفاضة السخف ، هو نكسة طارئة وانحراف عن سبيل التقدم وارتداد إلى الوراء وتوهين للفكر وإضاعة

للجهد ، ولقد كان شوبنهاور يستخف بدراسة التاريخ وينعى على مفكرى عصره استمساكهم بالمنهج التاريخى ، وكان يذهب إلى أننا نفيد من الشعر معرفة أصدق وأوفر مما نفيد من التاريخ ، وكان ينكر على التاريخ الصفة العلمية والقيمة الفلسفية ، لأننا لا نستطيع فى التاريخ أن نصل إلى الخاص عن طريق العام فالمؤرخ مضطر إلى مواجهة الخاص مباشرة ، فى حين أن العلوم المختلفة قد حصلت على تصورات شاملة كلية تستطيع أن تسيطر بها على الخاص ، أو – على أقل تقدير – أن تحدد مداه وتحيط بأطرافه وتتمكن من التنبؤ بحدوث أشياء فى داخل تلك الحدود ، وبذلك يظفر العقل الباحث المتقصى بشىء من الراحة والطمأنينة ، والعلوم تتحدث إلينا عن الأنواع فى حين أن التاريخ لا يعرف إلا الأفراد ، والعلوم تخبرنا بما سيكون ولكن التاريخ لا يذكر لنا إلا ما كان ولن يتكرر حدوثه بعد ذلك ، واقتصاره على الفردى والمعين لا يمكنه من استيفاء بحث الأشياء والإلمام بجميع نواحيها . ولم يكن ديكارت أقل زهداً من شوبنهاور فى دراسة التاريخ ، فالتاريخ عنده مزيج من الحقائق الخاصة والحقائق التى هى ثمرة المصادفة ، والمعول فى معرفته على الذاكرة والإدراك الحسى لا على العقل . فهو من ثم أدنى منزلة من العلم والفلسفة . والتاريخ عند أناتول فرانس هو تصوير حوادث الماضى ، ولكن ما هى الحادثة ؟ الحادثة هى حقيقة بارزة ملحوظة . ولكن من الذى يحكم أن تلك الحقيقة بارزة أو أنها ليست كذلك ؟ إن المؤرخ هو الذى يصدر هذا الحكم من إملاء إرادته ومن تأثير ذوقه . ولا يقف فرانس عند هذا الحد فهو يقول بأن الحقيقة شىء متراكب ، فهل يستطيع المؤرخ أن يجلوها كاملة غير منقوصة ؟ هذا من المستحيلات ولا مفر للمؤرخ من أن يصف الحقيقة مشذبة مهذبة ، وهو يضيف إلى ذلك أن الحقيقة التاريخية هى النتيجة النهائية لحقائق مجهولة أو غير تاريخية ، فكيف يتمكن المؤرخ من أن

يظهر توشجها واشتباكها ؟

والذين يقولون إن التاريخ يزيدنا علماً بالأمور ويصراً بأعقاب الحوادث لما بينها من صلات ووجوه شبه هم فى خطأ وضلال مبين ، لأن التاريخ لايتكرر وحوادثه لا تعيد نفسها وتاريخ الإنسان حلقة متصلة من التغيرات الدائبة المستمرة لا يستعاد فيها موقف ولا يتكرر حادث ، والحكم السياسية المستخلصة من التاريخ قد يكون ضررها أكثر من نفعها ، ويمكنك أن تلتمس فى التاريخ الذرائع لكل شىء ، ففيه انتصار الاستبداد وفوز التعصب وغلبة الشر ، وماصلح فيه لأمة من الأمم أو جيل من الأجيال قد لا يصلح لغيره ، وما أدى إلى نتيجة معينة فى عصر من العصور قد يؤدى إلى نقيضها فى عصر آخر .

وإذا كانت فائدة التاريخ مقصورة على مطالعة الأخلاق والخلوص إلى أسرار القلب البشرى فإن قراءة أعلام الروائيين وكبار الشعراء أقرب سبيلا وأحلى سوغاً ، ولئن كان التاريخ معرضاً مزدحماً بالشخصيات الحافلة والأبطال المساعير ، ففيه كذلك الكثير من الإمعات والأوشاب ، والكثير من صفحاته موقوف على سير الدجالين والسفاحين والسلابين حاشد بسخافات الأمراء والحكام وحماقات الملوك وطغيانهم وأهوائهم المسفة وشذوذهم المستكره ودسائس البلاط ومكائد القصور ، ولم يجد فى ستر ذلك ، محاولة المؤرخين تمويه حقيقتها وترصيع الكلام وزخرفة الحديث ، وأى نفع يرجى من وراء إجهاد النفس فى أبهاء المكاتب وسراديب المحفوظات لتعرف أسرار دسيسة حقيرة ومؤامرة وضيعة ؟

ولكن مهما حاول خصوم التاريخ أن يغمطوه حقه وينكروا عليه مكانته فلا سبيل إلى إنكار أن التاريخ هو مجموعة تجارب العصور السالفة وسجل كل

ما ظفر به الإنسان وجاهد فى سبيله ومعرض أحلامه الخائبة وآماله العاثرة وأمجاده الباهرة ومفاخره الخالدة .

ومهما أوتى الإنسان من سعة العلم ورزق من دقة الفهم فإنه لا يستطيع أن يكتسب من حوادث عصره وملابسات حياته سوى تجربة محدودة وستتسع آفاق نفسه وتستقيم تجاربه إذا أضاف إليها تجارب التاريخ ، وحقيقة أن الفكرة القائلة بأن التاريخ يقدم لنا قواعد لنسير عليها فى حياتنا ونأخذ بها فى مباشرة أعمالنا ليست من الرجاحة بمكان ، وإنما علينا أن نستثمر تجارب التاريخ كما نستثمر تجاربنا الشخصية ، وحوادث التاريخ فى الواقع لا تعيد نفسها ولكن هذا لا يقدح فى فائدة التاريخ ، فإن التجربة قد تفيدنا فى إدراك الفروق بين الحوادث أكثر مما تفيدنا فى معرفة وجوه الشبه بينها ، والحياة الإنسانية كثيرة التنوع والاختلاف وليست على حال واحدة فى مختلف العصور . وقد تفرد كل عصر بإظهار جانب من جوانب النفس وناحية من نواحى العقل ، والحضارة فى حركة مستمرة وتطور دائب ، ولمعرفة ما هو طبيعى للإنسان لا مفر لنا من الإلمام بأحواله فى عصور مختلفة وأزمنة متفاوتة ، وقد لا تكون حالة الإنسان فى العصر الحاضر أتم أنموذج وأصدق مثال لإنسانيته ، وقد تكون هناك نوازع مكظومة وغرائز مكبوحة وأفكار معقولة تحول بيننا وبين إدراك حقيقة الإنسان فى ألوانها العديدة وظلالها التى لا يأخذها الحصر ، والحكم على كفاية الإنسان يقتضى مراجعة ما تم على يده فى مختلف العصور ، وقد جلّى كل عصر صفة خاصة من صفات الإنسانية على أتم وجوهها ، والماضى يحفنا فى كل مسالك العيش ومظاهر الحياة ، فى القوانين والعادات والمعتقدات وفى حاستنا الأدبية وإدراكنا الأخلاق ، وفكرتنا عن الخير والشر وجهلنا الماضى من دواعى الضعف ، كما أن علمنا به من أسباب القوة ، والوسيلة الوحيدة لفهم المجتمع هى دراسة تاريخه

والإلمام بالأدوار التى مر بها تكوينه . وشوبنهاور على تنقصه للتاريخ كان يرى أن التاريخ للنوع كالعقل للفرد . وأن الشعب الذى يجهل تاريخه لا يفهم نفسه ولا يحس وجوده ، ويكثر الإقبال على التاريخ فى عصور الشك كأن الإنسان يدرك حين ذاك عظيم مسئوليته أمام التاريخ وحيال الإنسانية .